مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد.

فهذا بحث عن نشأة الدين والتدين. بين التوحيد والتطور. وكما يظهر من العنوان فإن الموضوع حيوى للإنسان بوجه عام، والمسلم المعاصر بوجه خاص . خاصة وأن هناك تيارات متعددة تتجاذب الموضوع إنْ بالحق أو بالباطل.

وواجب المشتغلين بالفكر الإسلامى من المتخصصين أن يُدلوا بدلوهم فى الموضوعات التى يتناولها نفر من غير المتخصصين فى العلم الدينى خاصة الذين يتابعون الغربيين فى وجهات نظرهم.

ومن ثمَّ وجدت لزاماً علىَّ كأحد المنتمين إلى الإسلام، والمنتسبين إلى الجامع الأزهر العريق، والمعروف بدفاعه عن قضايا الدين بوسطيته المشهود لها. أن أتناول موضوع نشأة الدين وبواعث التدين.

مبيناً الحق الذى أعتقده مدللاً عليه من خلال نصوص الكتاب والسنة مستأنساً بفهوم العلماء حولهما

ما معنى كلمة الدين فى معاجم اللغة العربية ؟ وما هى المعانى التى تدل عليها تلك الكلمة التى تمسُّ شغاف القلوب حين تذكر . يموت بسببها من يموت ويحيا من أجلها من يحيا . إنْ بالحق أو بالباطل؟

هذا ما يجيب عليه هذا البحث. فى المبحث الأول بمسائله الثلاثة – التى تتناول معنى الدين.فى اللغة وماذا قال المستشرقون عن كلمة الدين الواردة فى اللغة العربية؟ وما هو الجواب عما أثاروه؟ هذا ما تتناوله المسألة الثانية من المبحث الأول . أما المسألة الثالثة . فكانت عن معنى الدين فى اصطلاح الفكر الإسلامى.

أما المبحث الثانى: فكان عن الدين وإطلاقاته فى القرآن والسنة واشتمل على عدة مسائل منها الدين فى القرآن الكريم - بمعناه العام الذى يشمل الحق والباطل – فمن دلالته على الحق وروده بمعنى الإسلام أى استسلام المرء لله وتوحيده وهذا الإسلام هو ما وصف الله به الأنبياء فى القرآن الكريم ومن دلالته على الباطل . قوله تعالى ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ أما الدين بمعناه الخاص فيطلق على الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم والذى لا يقبل الله ديناً سواه.

أما المسألة الثالثة: فكانت عن الدين وإطلاقاته فى السنة النبوية، وقد أوضحت أن لفظ الدين ورد بمعناه العام الذى يعنى الدين الباطل كدين اليهود والنصارى وورد أيضاً بمعناه الخاص الذى يعنى الدين الحق وهو الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وأوردت نماذج من المعنيين وإطلاقاتهما فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما المبحث الثالث : فكان عن إبطال زعم من ادعى نجاة غير المسلم بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم. وقد ناقشت فيه بعض الآراء التى زعم أصحابها أن المسلم من أخلص وجهه لله من أى ملة كان ، وفى أى زمان وجُد بدون تقييد ذلك بمن كان قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم. أما بعد بعثته فلا يقبل من أحدٍ صرفاً ولا عدلاً إذا بلغته دعوة الإسلام ولم يؤمن بالله ولم يصدق بمحمد ﷺ وحشدت الأدلة على ذلك.

أما المبحث الرابع فعقدته للحديث عن الملة فى اللغة والاصطلاح، وورودها فى القرآن الكريم والسنة النبوية.

أما المبحث الخامس: فكان عن النحلة فى اللغة، والاصطلاح، ودلالة هذه الكلمة وعلاقتها بمجال العقيدة وعلاقتها بمجال العقيدة والتدين.

أما المبحث السادس: فكان عن الدين فى اصطلاح الغربيين . عرضت فيه جملة من تعريفاتهم للدين وبينت قصور التعريفات عن الوفاء بالمدلول الحقيقى لكلمة الدين ثم بينتُ العناصر الضرورية اللازمة للدين، والتى غابت عن تعريفات الغربيين

ورجحتُ ما ذهب إليه العلامة الدكتور " دراز" وانتصرت للتعريف الذى أورده.. وأنهيت بذلك الفصل الأول من الدراسة.

أما الفصل الثانى: فجاء بعنوان مصدر الدين وبواعث التدين عند الغربيين وقد اشتمل على عدة مباحث:

المبحث الأول: دعوى أن الإنسان هو مصدر الدين.

فى هذا المبحث عرضت وجهة نظر بعض الغربيين الذين ذهبوا إلى أن الإنسانية قد عاشت قروناً طويلة فى حياة مادية خالصة قبل أن تفكر فى مسائل الدين، وبينت أن هذا الاتجاه سيطر على الفكر الأوربى فترة من الزمن، ولا تزال بقاياه موجودة فى هذا العصر. وقد أوردت الأسباب التى جعلت البعض يذهب إلى هذا الرأى. وذكرت منها: القدوة غير الحسنة، والانحلال الخلقى عند رجال الكنيسة. ومصادرة الفكر من قبل رجال الدين، وسيطرة الكنيسة واضطهادها للمفكرين. هذه الأمور وغيرها جعلت الكثير ينفر من الدين ويهاجمه. وكان خطأ هؤلاء أنهم عمموا أحكامهم فلم يقصروها على الدين الذى عذبوا باسمه . ولكن تعدوه إلى جميع الأديان وعلى رأسها الإسلام.

أما المبحث الثانى : فكان عن البواعث على التدين عند من يزعم بأن الإنسان مصدر الدين.

عرضتُ فيه أهم النظريات التى تفسر الباعث على التدين . فذكرت منها المذهب الطبيعى، والمذهب الحيوى، ومذهب الطوطم وأوردت بعض الاتجاهات الثانوية فى الباعث على التدين والتى منها الشعور بالحب، والاتجاه النفسى كباعث على التدين.

ثم عقبت بتعقيب رصدت فيه انتشار هذه الأفكار الأمر الذى جعل بعض المفكرين فى العالم الإسلامى يتابعون الغربيين فى نظرتهم إلى مصدر الدين والبواعث عليه.

ذكرت من هؤلاء الأستاذ " سليمان مظهر " فى كتابه " قصة الديانات " والأستاذ " عباس العقاد " فى كتابه " الله كتاب فى نشأة العقيدة الإلهية " ومما لفت نظرى

واسترعى انتباهى إقراره بما ذهب إليه الغربيون من أن الإنسان بدأ وثنياً معدداً وانتهى بتوحيد الآلهة فى إله واحد. وإذا بالأستاذ ، بعد أن يعدد الأدوار التى مرت بها الأمم فى العقيدة والتى تمثلت عنده فى دور التعدد، ودور التمييز والترجيح، ودور الوحدانية . إذا به يقول: " وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم فى القرآن ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ سورة الأنعام الآيات ٧٦ - ٧٩)

وبهذا التعقيب أنهيت المبحث الأول من الفصل الثانى.

أما المبحث الثانى: فقد خصصته لتقويم الاتجاهات الواردة فى المبحث الأول . والتى يزعم أصحابها أن الإنسان هو مصدر الدين، وأن البواعث على التدين مظاهر أرضية أو سماوية بعيدة عن الوحى والغيب .

فنقضت ما ذهب إليه أصحاب المذهب الطبيعى. وأيضاً ما ذهب إليه أنصار المذهب الحيوى. وتوقفت قليلاً عند أصحاب مذهب الطوطم خاصة زعيمهم "دوركايم " فيما ذهب إليه.

ثم تحدثت عن نقض القول بالتطور فى خلق الإنسان والكائنات . والذى دفعنى إلى إيراد هذا النقض ما ظهر لى أثناء عرض وجهة نظر الغربيين من سيطرة فكرة القول بالتطور بمعناه " البيولوجى " عليهم جميعاً حتى بدا لى أن القول بالتطور هو القاسم المشترك بينهم على اختلاف أزمنتهم، وأمكنتهم، ولغاتهم. وقد أوردت خلاصة بحوث العلماء التى انتهت إلى زيف القول بالتطور فى خلق الكائنات والإنسان من الناحيتين العلمية والدينية.

وبعد أن أنهيت تفنيد القول بالتطور " البيولوجى " يممتُ وجهى شطر الذين يقولون بالتطور فى العقيدة. فبينت الخطأ المنهجى الذى وقعوا فيه ، وأوضحت أن دراساتهم تقوم على الظن والتخمين. لا على اليقين . وتساءلت ما هى الأدوات التى استخدمها هؤلاء لدراسة معتقدات الإنسان منذ مليونين ونصف المليون عام.. ؟ هذا من ناحية . ثم من جهة أخرى إن القول بقياس التطور فى العقائد على التطور فى الصناعات حجة على التطوريين لا لهم . ثم أوضحت أن القول بالتطور فى العقيدة

بضاعة أوربية استنفدت أغراضها وانتهت صلاحيتها بعد أن جاء الإسلام، وقرر القرآن أن الناس منذ خلقوا كانوا على التوحيد وأن الرسل كانت توقظ فطر الخلق لترشيدهم إلى توحيد الله وألوهيته..

أما ما يتعلق بما ذهب إليه الأستاذ " العقاد " (يغفر الله له) فقد تناولتُ الآيات التى استدل بها على التطور ، وأوردتُ ما ذكره ثلةٌ ، من المفسرين وعلماء العقيدة حولها وتابعتهم فيما ذهبوا إليه من أن هذه الآيات كانت على سبيل المجادلة والمحاجة لقومه بدليل قوله تعالى فى بداية الآيات (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) وكما يقول " الرازى: "ومن كان منصبه فى الدين كذلك وعلمه بالله كذلك فكيف يليق أن يعتقد بإلهية الكواكب "،ومما يدل أيضاً على أنه فى هذه الآيات كان مجادلاً قومه. قوله تعالى فى نهاية الآيات ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنعام الآية ٨٣

وقد ناقشت المفسرين الذين ذهبوا إلى خلاف ذلك – ثم بينتُ خطورة قول الأستاذ " العقاد " ومن قال بقوله ـ لأن القول بالتطور فى الدين يؤدى منطقياً إلى أن الدين من صنع الإنسان وأن فكرة " الله " ليست سوى مثل أعلى متغير وضعه الناس لأنفسهم، وأيضاً فإن القول بالتطور فى العقيدة فيه تكذيب للنصوص الدينية التى تقرر سمو التصور الدينى عن سيدنا " آدم " عليه السلام. وأنهيت بالرد على الأستاذ " العقاد " المبحث الثانى من الفصل الثانى.

أما الفصل الثالث : فكان عن مصدر الدين ، وبواعث التدين عند جمهور المسلمين. وقد اشتمل هذا الفصل على عدة مباحث:

المبحث الأول: عقدته للحديث عن القرآن الكريم وحديثه عن مصدر الدين.. وقد أوردت فى هذا المبحث ما ذكره الله عز وجل عن قصة " آدم " عليه السلام إن فى السماء أو فى الأرض والتى تدل على أن مصدر الدين هو الله، وأن الإنسان الأول نزل بالوحى، والهداية، والتوحيد ، وأن الباعث على التدين الفطرة ودعوة الرسل إلى توحيد الله وعبادته وكذلك العقل السليم.

أما المبحث الثانى : فكان عن البواعث على التدين عند المسلمين ـ أوضحت فى هذا المبحث أن الفطرة ، والميثاق الذى أخذه الله على بنى آدم، وإرسال الرسل

لتذكير الخلق ودعوتهم إلى توحيد الله . كل هذه الأسباب وغيرها كانت من البواعث على التدين، وأوضحت أن الأصل هو الوحدانية، وأن الشرك هو الطارئ على البشرية واستعرضت قوله تعالى ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (البقرة الآية ٢١٣) وما دار حولها. من دلالتها على الاجتماع على التوحيد وهو مذهب جمهور المسلمين فى تفسير الآية. وما ذهب إليه البعض من أن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر و الضلال. عرضت ما ذهب إليه كل فريق ورجحت ما ذهب إليه الجمهور من أن الناس كانوا أمة واحدة على التوحيد وحشدت الأدلة على ذلك وأنهيت بذلك الفصل الثالث . من الدراسة.

أما الفصل الرابع : فجاء تحت عنوان العلم التجريبى والدين وقد اشتمل على مبحثين وعدة مسائل

فى المبحث الأول: مهدت بتمهيد أوضحت فيه سيادة الاتجاه المادى المستند على الحس والتجربة ثم عرضت تعريف المذهب الوضعى، وقانون الحالات الثلاث الذى ذكر فيه " أوجست كونت " المراحل التى مرت بها البشرية ابتداءً بالمرحلة اللاهوتية ، وتوسطاً بالمرحلة الميتافيزيقية، وانتهاءً بالمرحلة الوضعية التى يقرر فيها " كونت " ضرورة الاستغناء عن الدين والاكتفاء بالعلم التجريبى وأن جميع المشكلات لا تحل بالدين، ولكن بالعلم.

ثم أوردت الأسباب التى أدت إلى سيادة المذهب الوضعى وانتشاره فى أوربا وكيف تسرب هذا المذهب إلى العالم الإسلامى وذكرت بعض المفكرين الذين تبنوه فترة ثم تراجعوا عنه أمثال " إسماعيل مظهر " والدكتور " زكى نجيب محمود " (يغفر الله لهما) .

أما المبحث الثانى: فعقدته لتقويم المذهب الوضعى. ودار الحديث فيه عن عدم اتباع " كونت " للمنهج العلمى فيما ذهب إليه بالرغم من ادعائه تمثل العلم فى جميع الأمور.

وبينت أن " كونت " نفسه قد هدم المذهب الوضعى الذى دعا إليه حين اخترع ديانة الإنسانية وكيف عبد " كونت " صنماً تمثل فى إمرأة تدعى " كلوتيد دى فو " ؟ وأوردت قوله تعالى ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ النساء الآية ١١٧

وأوضحت أن " كونت " الذى دعا إلى ترك العقيدة الدينية. صنع له ديناً جمع فيه خسة الفكر البشرى فى اتباع الهوى، والكفر بالله العظيم.

ثم بينت فى معرض الرد على " كونت " كيف أن العلم التجريبى الذى دعى إليه قائم على الغيبيات مستشهداً فى هذا الصدد بأقوال أساطين العلم التجريبى الحديث، والمعاصر. وأن العلماء التجريبيين يصرحون بأنهم مضطرون لقبول أشياء كثيرة فى المجال العلمى بلا مناقشة.

ثم تحدثت عن إخفاق العلم التجريبى فى حل مشكلات الإنسان المعاصر. وأن العلم الذى دعا إليه " كونت " بعيداً عن الدين هو المسئول عن الإبادة الجماعية والفقر والجوع فى العالم الآن.

ثم أوردت نماذج من انتشار السحر والتنجيم والشعوذة فى العالم الغربى. الذى اتخذ العلم إلهاً عبده من دون الله. وأوضحت أن العلم عجز عن إشباع الجانب الروحى الأمر الذى أدى إلى انتشار هذه الخرافات فى أرقى المجتمعات الأوربية من الناحية المادية.

ثم كانت الخاتمة التى اشتملت على تعقيبين :

التعقيب الأول : كان عن علاقة الإسلام بالعلم. أوضحت فيه شمولية الإسلام واهتمامه بكافة أمور الإنسان الدنيوية منها التى تحقق خلافته عن الله فى الأرض واستكشاف سنن الله فى كونه، والأخروية التى تحقق له الأمان فى دار البقاء وبينت أن المسلمين الأوائل اكتشفوا سنن الله فى أرضه وسمائه فانطلقوا يبحثون وينقبون ويشتغلون بالعلوم التجريبية من فلك وطب ورياضيات وكانوا يعتبرون أن ذلك انشغال بالعلم النافع الذى يحث عليه القرآن ويرغب فيه الرسول. وأوضحت أن المسلمين الآن لا يمكن لهم أن يحققوا تعاليم الإسلام إلا بالعلم بكافة أنواعه وشتى ضروبه لأن إعداد القوة للأعداء لا تتأتى ولا تتحقق إلا بالعلم ولأن زراعة الأرض وعمارتها لن تتحقق إلا بالعلم. ولكن شتان بين مشتغل بعلم كلما اكتشف شيئاً أو حقق اختراعاً كلما ازداد قرباً من الله، وبين مشتغل آخر كلما اكشف مخترعاً جديداً

كلما زاد طغياناً وفساداً واستكباراً فى الأرض كما هو شأن الكثيرين الآن فى الحضارة الغربية.

أما التعقيب الثانى: فكان عن الدين الحق الذى ينقذ البشرية وقصدت به الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ لما امتاز به من خصائص وبينت أن البشرية فى أمس الحاجة إليه الآن . واقتصرت على جوانب ثلاثة من الإسلام يحل بها الإسلام مشاكل البشرية باعتباره رسالة عامة للعالمين واعتبار رسوله خاتماً للأنبياء والمرسلين . تمثلت هذه الجوانب فى :-

أولاً: عقيدة التوحيد:

وقد أوضحت أن التخبط الذى يصيب المجتمعات البشرية الآن يكمن فى غياب التصور الصحيح عن الألوهية. والذى لا نجده فى الديانات الكتابية مثل اليهودية، والنصرانية ولا فى الديانات الوضعية مثل الهندوسية والبوذية ، ولا فى المذاهب الوضعية مثل الرأسمالية وغيرها. وإنما نجد هذا التصور فى الإسلام الحنيف.

ثانياً: الجانب الأخلاقى.

وقد بينت أن المستنقع الآسن الذى وصلت إليه البشرية الآن من الناحية الأخلاقية التى لن يأخذ بيدها وينجيها من الغرق فيه سوى الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ.

ثالثاً: جانب المعاملات بين الأفراد والدول وأن الإسلام بتعاليمه المبثوثة فى القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية. هو الأمل المنشود للبشرية كلها تحقيقاً لوعد الله. وإنما اقتصرت على هذه الأمور الثلاثة لأنها من وجهة نظرى المتواضعة هى الأهم. وإلا فإن تعاليم الإسلام كلها فى غاية الأهمية. والأمر الثانى الذى دعانى للاقتصار على هذه الجوانب الثلاثة. أن الدراسة ليست مخصصة لشرح تعاليم الإسلام.

أسأل الله أن يعز دينه وأن يمكن لأتباعه ليعيدوا أمجاد السلف الصالح. إنه سميع مجيب. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

د/ فرج الله عبد الباري أبو عطا الله

رئيس قسم العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين